من بلاغة الإعجاز النبوي
في مراحل تكوين الجنين

الدكتورة

أسماء عادل محمد علي

مدرس بقسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بنات – القاهرة- جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

من بلاغة الإعجاز النبوي في مراحل تكوين الجنين

أسماء عادل محمد علي
مدرس بقسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات – القاهرة- جامعة الأزهر- جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني: AsmaaAli.2057@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يهدف البحث إلى استشراف الأساليب البلاغية في حديث ابن مسعود عن مراحل خَلْق الجنين في بطن أمه؛ للكشف عن حقائق علمية، وردت قبل اكتشاف الطب الحديث لها، والتي تُبيِّنُ مدى دقة الحديث النبوي في وصف هذه الحقائق وصفًا شاملًا يؤكد على الإعجاز النبوي في تأسيسها وَصَوْغها في براعة أسلوب، ووضوح تعبير، وقوة منطق، مراعاة للمقام ومقتضى الحال.

كما يهدف البحث إلى تصحيح مسار العلم التجريبي، والانطلاق من الحديث النبوي للوصول إلى حقيقة علمية لم يصل إليها أحد، ويهدف أيضًا إلى إثبات الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ع؛ للرد على المرجفين في زمن العلم والتقنيات، وبيان أنَّ ما ذكر في الحديث النبوي من إشارات علمية ناسبت كل الأزمنة، فامتدت من زمن لزمن، في أسلوب يتسم بالكثافة الدلالية والسمو في المعنى.

وقد اقْتَفَيْتُ في دراستي التطبيقية هذه المنهَجَ التَحْليلي التذوقي البلاغي، بالكشف عن المعاني الدلالية العميقة للألفاظ من خلال بيان الأساليب البلاغية التي حَمَلَهَا المعنى، وتَجَاوَزَ بها المعنى الظاهر إلى المعنى العميق، وكيف وُظِّفت الدلالة الصوتية للألفاظ في إبراز المعنى، والكَشْف عن مراده.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث، أنَّ الرسول ع وصف مراحل تكوين الجنين معبرًا تعبيرًا دقيقًا عن المظهر الخارجي والبناء الداخلي، وما يعتريه من تغيير يصاحبه علاقة جديدة، مما أبهر العلماء، وذلك بعد معرفتهم التفصيلة لمراحل تكوين الجنين عن طريق الأجهزة الحديثة، فكانت دليلًا على صدق النبي ع.

الكلمات المفتاحية: تعريف الإعجاز، تعريف الجنين، نبذة عن راوي الحديث

From the eloquence of prophetic agonists in the stages of embryo formation.

Asmaa Adel Mohamed Ali
Department of rhetoric and criticism - Faculty of Islamic and Arab Studies, Banat, Cairo
Al-Azhar University - Arab Republic of Egypt
Email: asmaa088888@gmail.com

Abstract: The aim of the research is to explore rhetorical methods in Ibn Masood's talk about the stages of fetal creation in his mother's abdomen; For the purpose of revealing scientific facts, received prior to the discovery of modern medicine, which show the accuracy of prophetic speech in describing these facts in a mprehensive manner that emphasizes prophetic prodigy in their establishment and formulation in the ingenuity of style, clarity of expression, and the power of logic, taking into account the situation.

The aim of the research is to correct the course of experimental science, to start from prophetic talk to arrive at a scientific fact that no one has reached, and to prove scientific inertia in the conversations of the Messenger of God. To respond to the reference points in the time of science and technology, and to show that the scientific references mentioned in the Prophetic Talk have been attributed to all times, stretching from time to time, in a manner of semantic intensity and transcendence in meaning.

In my applied study, I have followed this rhetorical tonal analytical approach by revealing the deep semantics of words by setting out the rhetorical methods in which the meaning has been given, transcending the apparent meaning to the deep meaning, and how the phonetic connotation of words has served to reflect the meaning and to reveal the meaning.

One of the most important findings of the research was that the messenger described the stages of embryo formation in expression of external appearance and internal structure, and its change, accompanied by a meticulous new relationship, which impressed scientists, having had little knowledge of the stages of embryo formation through modern devices, as evidence of the prophet's sincerity.

Keywords: Definition of miracle, definition of fetus, profile of modern narrator

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، لك الحمد يا مَن تقدَّست عن التشبيه والتمثيل، ويسَّرت لنا الوصول إلى حقيقة المعاني بأوضح مجاز وسبيل، والصلاة والسلام على نبيك المرسَل إلى الخلق بالهداية، سيدنا محمد ع الذي بيَّن الرشد من الغي بالتصريح دون الكناية، وعلى آله وأصحابه الفائزين بالأسرار النبوية الأصلية، وعلى كل مَن تبعهم فَنَالَ عِزّ الدارين بالتبعية.

وبعد...

فقد بُعثَ النبيُّ ﷺ من العرب، وكانت معجزته القرآن الكريم بلغة العرب، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١)، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله رغم فصاحتهم وبلاغتهم وبيانهم، وكذلك جاءت أحاديث الرسول ع بلغة العرب في أبهى صورها، وتحمل في طيَّاتها كل صور الإعجاز والبلاغة، فهي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي وحي من عند الله لأ، تمثل ذِرْوة البيان البشري، والبلاغة الإنسانية مبنًا ومعنى، مضمونًا وشكلًا، فكرة وأسلوبًا، فقد حوت حقائقَ المعرفة، وبدائع التوجيه، ونوادر الألفاظ، مع سهولة فائقة، وعذوبة رائعة، وهي أجدر بأن توصف بأنها تنزيل من التنزيل، وقبس من نور الذكر الحكيم، وقد خص الله لأ نبيه بقوة البلاغة والفصاحة، ليقويَ به حجته في مجابهة خصومه من عرب قريش، ونحن من بلاغة حديثه ننهل جمال العربية ورونقها، فقد بلغت فصاحته المنتهى، وتضمنت جوامع الكلم، في عبارات بسيطة، قلَّ فيها الكلام، وكثر فيها المعنى، وقد أعطيت لنبي الأمة، وفُضِلَّ بها على بقية الأنبياء لذلك ظهر الإعجاز في البلاغة النبوية؛ حيث تضمنت معالم الإيجاز والسهولة وعدم التكلف، واتسمت بوجود نسج علائقي متين، بين نظم ألفاظها وتراكيبها،

(١) سورة يوسف، الآيه رقم: (٢).

فكل جملة تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها بما يُبدي الإعجاز المحكم في علاقة عناصرها وأجزائها ببعض في ربط محكم بين المفردات.

ولما كان خلق الانسان آية من الآيات التي تفرد بها الله لأ، وتحدث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية في دقة متناهية، فكانت دليلًا على قدرة الله لأ، وجاءت الأبحاث العلمية والاكتشافات الحديثة لتوافق ما جاء في القرآن والسنة، ولما كان للسنة النبوية أثر بالغ في اكتشاف هذه الحقائق العلمية، لذا لمعت في ذهني فكرة البحث لمعرفة الإعجاز في مراحل تكوين الجنين من خلال سنة رسول الله ﷺ، وكيف مضى الرسول ع في بيان وصفي لهذه المراحل في نموذج ساطع، يكشف جانبًا من صدق ما جاءت به روايات السنة المطهرة، من حقائق علمية أثبتتْها تقنيات العلم الحديث، وسنعمد إلى دراسة الأمر عن كثب، وفق نظرة علمية، تكشف جانبًا من أسرار مشكاة النبوة الطاهرة، وما حوته من درر ونفائس، طابقت ما جاء في القرآن الكريم، ووافقت ما جاء في العلم الحديث، وذلك من خلال دراسة تطبيقية لحديث ابن مسعود عن مراحل تكوين الجنين في بطن أمه، الذي أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، في أربع روايات، بأسانيد مختلفة، وألفاظ متفاوتة في المبني، لكنها تتحد في المعنى، وتشترك في الدلالة، فتفسر وتؤكد مضمون حديث ابن مسعودا المذكور قبلها، كما سنبين، وعلى الرغم من كون أحاديث أخرى صحيحة في نفس الموضوع عند غيره، ولكني اقتصرت على ما ورد في صحيح البخاري؛ لما تحمله هذه الأحاديث من نفس المعنى مع اختلاف الروايات، فبعضها يفسر بعض.

ويهدف البحث إلى استشراف الأساليب البلاغية في حديث ابن مسعود ا عن مراحل خَلْق الجنين في بطن أمه للكشف عن حقائق علمية وردت قبل اكتشاف الطب الحديث لها، والتي تُبيّنُ مدى دقة الحديث النبوي في وصف هذه الحقائق وصفًا شاملًا يؤكد على الإعجاز النبوي في تأسيسها

وَصَـوْغها فـي براعـة أسـلوب، ووضـوح تعبيـر، وقـوة منطـق، مراعـاة للمقـام ومقتضى الحال.

كما يهدف إلى تصحيح مسار العلم التجريبي، والانطلاق من الحديث النبوي للوصول إلى حقيقة علمية لم يصل إليها أحد.

ويهدف أيضا إلى إثبات الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ع، للرد على المرجفين في زمن العلم والتقنيات، وبيان أنَّ ما ذكر في الحديث النبوي من إشارات علمية ناسبت كل الأزمنة، فامتدت من زمن لزمن، في أسلوب يتسم بالكثافة الدلالية والسمو في المعنى.

كما يهدف إلى بيان الإعجاز النبوي في وصف مراحل تكوين الجنين وصفًا دقيقًا، تم دراسته بلاغيًا وفق تحليل يبيّن مدى الانسجام والترابط من حيث اللفظ ودلالته الصوتية والائتلاف من حيث المعنى، الذي جاوز حدود الجملة المفردة، وكشف عن دلالة التراكيب التي تقوم على تعانق الأساليب البلاغية التي تؤدي إلى اتساق المعنى، فقد كان للأساليب البلاغية المختلفة أثر في نظم السياق الذي امتاز بالإقناع العقلي، الذي ساعد على تمكن المعنى في نفس المتلقي.

وقد اقْتَفَيْتُ في دراستي التطبيقية هذه المنهَجَ التَحْليلي التذوقي البلاغي، بالكشف عن المعاني الدلالية العميقة للألفاظ من خلال بيان الأساليب البلاغية التي حَمَلَهَا المعنى، وتَجَاوَزَ بها المعنى الظاهر إلى المعنى العميق، وكيف وظفت الدلالة الصوتية للألفاظ في إبراز المعنى، والكَشْف عن مراده.

أما عن الدراسات السابقة فلم أجد – فيما وقفت عليه– دراسةً تناولت الأساليب البلاغية في حديث ابن مسعود، وغاية ما وُجِد من دراسات فإنما يُعنى بشرح الحديث وبيان معانيه وذكر الروايات المختلفة، ومن تلك الدراسات:

١- شرح حديث ابن مسعود ﷺ في مراحل تكوين الجنين، بحث، المؤسسة العربية للاستشارات العلمية وتنمية الموارد، ٤/٦٢، إعداد: حفصة بنت عبد العزيز عبد الله الغانم، ٢٠١٨م، ويقع في (٢٢) صفحة تناولت الباحثة ذكر للغة الحديث وشرح موجز.

٢- مسائل العقيدة في حديث ابن مسعودا، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية – غزة، كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، إعداد/ أحمد هارون محمود الخولي، إشراف/ أ.د: محمود يوسف محمد الشوبكي، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م، وتناول الباحث تخريج الحديث، وشرح مفرداته، وذكر الغيبيات في الحديث، ودلالة الحديث على القضاء والقدر.

وأخيرًا، جاء البحث في مقدمة، يعقبها ذكر تعريف الإعجاز، وتعريف الجنين، ونبذة عن راوي الحديث، ثم الدراسة التطبيقية للحديث، يليها الخاتمة وبها أهم نتائج البحث وتوصياته، ثم المصادر والمراجع.

تعريف الإعجاز

الإعْجاز: "مصدر الفعل أعجز"[١]، فالعين والجيم والزاء أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدُهما على الضَّعف، والآخر على مؤخَّر الشيء، فالأول عَجِزَ عن الشيء يعجز عَجْزاً، فهو عاجزٌ، أي ضَعيف[٢]، والعَجْزُ: "نقيض الحَزْم، والإعْجاز: "الفَوْتُ والسَّبْقُ"[٣]، و"أعجزه الشيء: فاته"[٤]، والعَجْزُ أَصْلُهُ التأخُرُ عنِ الشيء، وحُصُولُهُ عنْدَ عَجُزِ الأمْر، أي: مُؤَخِرِهِ، وصَارَ في التَّعارُفِ اسمًا للقُصُورِ عَنْ فِعْلِ الشيء، وهو ضِدُّ القُدْرَةِ"[٥].

العَجْز في اصطلاح البلغاء: هو"الإتيان بمعنى تركيبي لا يُستطاع إكماله، ولا يُحاط بكل ما يرمي إليه"[٦].

والإعجاز في الكلام: هو"أن يؤدي المعنى بطريق هو الأبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[٧].

والإعجاز في السنة النبوية: هو إخبار بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية، في زمن الرسول مما يُظهِرُ

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د/ عبد السلام حمدان اللوح،١، آفاق للطبع والنشر والتوزيع، غزة، فلسطين، ٢٠٠٢م.

(٢) مُعْجم مقاييسُ اللغة، لأبي الحسين بن فارس بن زكريا، مادة: (عجز).

(٣) لسان العرب، لابن منظور، مادة: (عجز).

(٤) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبي البقاء أيوب الحسيني الكوفي، قابله على النسخة الخطية ووضع فهارسه: د/ عدنان درويش، محمد المصري، ١٤٩، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، مادة: (عجز)، ٥٤٧، دار القلم، دمشق، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

(٦) كشاف اصطلاحات الفون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج،٢/ ١١٦٥، مكتبة لبنان، ١٩٩٦م.

(٧) معجم التعريفات، الشريف الجرجاني، الألف مع العين، ٣٠.

ويؤكد صدق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن ربه، ومعجزة النبيع: "ما أعجز به الخصم عند التحدي"[١].

والإعجاز البلاغي يتضمن الدقة في اختيار الكلمات وترتيبها بصورة بديعة في المحتوى والشكل والمعاني والدلالات الخفية التي تكمن خلف الأسلوب؛ حيث تظهر فيها الفصاحة والبلاغة بصورة يفهمها القارئ.

إذًا فالإعجاز: هو العلم الذي يثبته لنا العلم الحديث بعد قرون من إخبار الله لأ في القرآن الكريم، وإخبار النبي ع في السنة النبوية.

تعريف الجنين

الجَنينُ: الولدُ ما دام في بطن أُمّه لاسْتِتاره فيه"[٢]، وسمي الجنين جنينًا لاجتنانه، أي: استتاره، والجنين متوار في بطن أمه"[٣]، ولا يقال له جنين" إلا ما دام في بطن أمه"[٤]، وعِنْد الْأَطِبَّاء: "ثَمَرَة الْحمل فِي الرَّحِم حَتَّى نِهَايَة الْأُسْبُوع الثَّامِن وَبعده يدعى بِالْحملِ"[٥]، وقيل:"تطلق كلمة الجنين Embryo على ما تجنه الرحم في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل، والذي يولد باكتماله مدة الحمل"[٦]، وقيل: الجنين"الولدُ خلال فترة تخلُّقه في بطن أمِّه، وتستغرق

---

(١) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبي البقاء أيوب الحسيني الكوفي ، ١٤٩.

(٢) لسان العرب، مادة: (جنن).

(٣) تفسير الرازي، لفخر الدين الرازي، ٢/ ٤٢٨، ١٩/ ١٣٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

(٤) شرح غريب ألفاظ المدونة، الجبي، تحقيق: محمد محفوظ، ٤٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، باب: (الجيم).

(٦) موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية (مصطلحات علوم القرآن)، رئيس التحرير: أ.د/ عبد الحليم عويس، مدير التحرير: أنور الباز، ٦٠٨/١، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

هذه الفترة وسيطًا(تسعة أشهر قمرية) تنتهي بولادة الجنين وخروجه من الرحم"[١].

نبذة عن راوي الحديث

اسمه وكنيته:

الصَّحَابِيّ عَبْد اللَّه بْن مَسْعُود بْن غافل بْن حبيب أَبُو عَبْد الرَّحْمَن الهذلي، حليف بني زهرة[٢]، كناه النبي ﷺ أبا عبد الرحمن[٣].

مناقبه:

كان "سادس الإسلام سبقاً وإيماناً، وهو أحد القراء الذين قال فيهم النبي ع: استقرئو القرآن من الأربعة"[٤]، فكَانَ "أَوَّلَ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بِمَكَّةَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ع"[٥]، وكان "يوقظ النبي ع إذا نام، ويستره إذا اغتسل، ويرحل له إذا سافر، ويماشيه في الأرض الوحشاء، وقال: رسول الله ع ماحدثكم ابن مسعود فصدقوه"[٦]. **وفاته:** تُوفِّي بِالْمَدِينَةِ سنة ثِنْتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَصلى عَلَيْهِ الزبير بن الْعَوام وَدفن بِالبَقِيعِ وَكَانَ لَهُ يَوْم مَاتَ نَيف وَسِتُّونَ سنة[٧].

---

(١) الموسوعة الطبية الفقهية، د/ أحمد محمد كنعان، تقديم: د/ محمد هيثم الخياط، ٣٠٢، دار النفائس، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(٢) أسد الغابة في تعريف الصحابة، أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد عوض، ٣/ ٢٨٠، ٢٨١، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر،تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، ٤٥/١٤، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٤م.

(٤) السابق، ٥٣/١٤.

(٥) أسد الغابة في تعريف الصحابة، أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، ٣/ ٢٨١.

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ٥٣/١٤.

(٧) رجال صحيح مسلم، أبو بكر ابن منْجُويَه، تحقيق: عبد الله الليثي، ١/ ٣٣٦، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

مراحل تكوين الجنين

عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ[1]: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ:" إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ "[2].

يخبرنا الرسول ﷺ عن أمور غيبية فوق إدراك البشر، لذا قد يدخل الشك والإنكار بها في النفس البشرية التي تعجز عن إدراكها لعدم قدرتها على رؤيتها وتصوُّرها، فأراد النبي ع أن يقرر هذه الأمور في نفوس متلقيه وسامعيه من خلال الاستهلال بالأسلوب الخبري المؤكَّد بـ «إنَّ» و«اسمية الجملة» في قوله: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) ليشارك المتلقي والسامع في الحديث وإن لم يتكلم، وكأنَّ هناك مَنْ يسأل عن كيفية خلق الإنسان في بطن أمه، فكان الجواب مؤكدًا، وهذا أدعى للانتباه، فكأنَّه افترض في متلقيه هذا التساؤل، وبدأ يجيب عنها مستنطقًا إياهم بسؤاله ليفاجئهم

---

(١) هو عبد الله بن مسعود، كما ذكر في رواية الحديث في صحيح البخاري، كتاب (التوحيد)، باب قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الصافات، آية رقم: (١٧١) ، حديث رقم: (٧٤٥٤)، ٤/٤٤١، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢) صحيح البخاري، كتاب (بَدءِ الخلقِ)، باب(ذكرِ الملائكةِ)، حديث رقم: (٣٢٠٨)، وكتاب (أحَاديثِ الأنْبيَاءِ)، باب (خلق آدم صلوات الله عليه وذُرِّيته)، حديث رقم: (٣٣٣٢)، وكتاب(القدر)، باب (١)،حديث رقم: (٦٥٩٤)، وكتاب (التوحيد)، باب قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الصافات، آية رقم: (١٧١) ، حديث رقم: (٧٤٥٤)، ٢/ ٣٨٥، ٤١١، ٤/ ٢٣٦، ٤٤١.

بالجواب، وبهذا تكون دائرة التفاعل التي توحي بجوّ المشهد، فالمتلقون لم يكونوا على علم بتلك الأخبار؛ بل صادفت خلاف ما في النفس من خيال.

وقد يكون تأكيد الخبر لرد استبعاد السامع لمضمون القول (كيفية خلق الإنسان في بطن أمه)، فبذلك يصدم وَعي المتلقي بالتأكيد الذي يزيد المُصَدِّق تصديقًا، ويزيل الشك من صدر الشاك، ويقيم الحجة للمنكر.

ويدل التأكيد أيضًا على الاهتمام بمضمون القول لكونه أمرًا عظيمًا يُكذبه البعض وينكره، فكان للتوثيق ورد الإنكار والتكذيب، ويُعد هذا من براعة الاستهلال الذي يأخذ بلُب المتلقي، فيشارك المتكلم طواعية في قوله: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) أي: "إنَّ المنيَّ يقعُ في الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدَّافعة مبثوثًا متفرقًا، فيجمعه الله لأ في محل الولادة من الرَّحِم في هذه المدَة"(١)، فالرسول ع يخبرنا بأول مرحلة من مراحل خلق الإنسان في بطن أمه، فماء الرجل عندما يقع في رحم المرأة يكن متفرقًا مشتتًا، فيجمعه اللهلأ بماء المرأة، ومن هنا يبدأ التكوين الأول للإنسان، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾(٢)، أي: "مَصْبُوبٍ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ الْمَنِيُّ، وَأَرَادَ مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا، وَجَعَلَهُ وَاحِدًا لِامْتِزَاجِهِمَا "(٣)، و"اتحادهما"(٤)، ويسمى "النطفة"(٥)، قال تعالى:﴿أَلَمْ

(١) المفهِم لما أشكَل من تلخيص كتاب مسلم، الحافظ أبي عباس القرطبي، كتاب (القدر)، باب: في كيفية خلق آدم، ٦/ ٦٤٩، ٦٥٠، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

(٢) سورة الطارق، آية رقم: (٦).

(٣) تفسير البغوي، ابن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرازق المهدي، ٢٣٩/٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٤) تفسير الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، ٤/ ٧٣٥، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

(٥) النُّطْفة: القليل من الماء الصافي، والنُّطفة: ماء الرجل. لسان العرب، مادة: (نطف).

يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾[1]، أَيْ: "مِنْ قَطْرَةِ مَاءٍ تُمْنَى فِي الرحم، أي تراق فيه"[2]، وقوله تعالى:﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ....﴾[3] ، "وَيُرْوَى عَنْ عَمَّارِ بْنِ رُزَيْقٍ، أَنَّهُ قَالَ لِلأَعْمَشِ: مَا يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ؟ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا وَقَعَتْ فِي الرَّحِمِ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ مِنْهَا بَشَرًا، طَارَتْ فِي بَشَرِ الْمَرْأَةِ تَحْتَ كُلِّ ظُفْرٍ وَشَعْرَةٍ، ثُمَّ تَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ تَنْزِلُ دَمًا فِي الرَّحِمِ، فَذَلِكَ جَمْعُهَا"[4].

فالرسول ﷺ يشير في قوله: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ) عن بداية تكوين الإنسان وخلقه في بطن أمه، إلى النطفة التي تجمعت بعد أن كانت منتشرة ومتفرقة، ومنها بدأ خلق الإنسان وتكوينه[5]، فكانت البداية الحقيقية للإنسان من النطفة، وهذا الأمر لا يقدر العقل البشري على تصوره، لذا أكده الرسول ع بالأسلوب الخبري المؤكد بـ (إنَّ)، فنرى الإبداع والدقة في استخدام المقطع الصوتي (إنَّ)، الذي يمتاز بدلالة خاصة، وهي النبر الشديد بالنون المشددة ذات"الغنة"[6]، الذي يحدث من خلال النطق بها نوع من الضغط الذي يشبه الإصرار على تأكيد المعنى وتثبيته لدى السامع، كما يمتاز

---

(١) سورة القيامة، آية رقم: (٣٧).

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ١١٦/١٩، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م

(٣) سورة النحل، من آية رقم: (٤).

(٤) شرح السنة للبغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش،كتاب (الإيمان)، باب: الإيمان بالقدر، ١/ ١٣٠، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(٥) فقبلها لم يوجد خلق.

(٦) "صوت لذيذ مركب في جسم النون". الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، محمد محمد سالم محيسن، ١/ ١٠٩، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

بدلالة صوتية يوحي بها تكرر النون، وتواشُج هذه الدلالات في هذا السياق مع دلالة إنَّ المعجمية الدالة على التوكيد، أوحى بالمعنى الذي جاء في نسقه.

ومما زاد من قوة التأكيد وترابط أجزائه، تداخُل الأسلوب الخبري المؤكد مع أسلوب الحذف، في قوله: (يُجْمَعُ خَلْقُه)، أي: (يَجْمَعُ الله مادة خَلْقُه)، مما يبعث على التأمل لاستثارة خيال المتلقي للجوء إلى السياق الذي دَلَّ على المحذوف؛ لأنَّه لا يقدر أحد على هذا سوى الله لأ، فالحذف كان للعلم به، فهو الذي جمع المادة التي بدأ بها خلق الإنسان(ماء الرجل وماء المرأة)، وفي حذفها دلالة على الاهتمام بالحدث لا مادته، إذ لو ذكرت لفات المقصود من الخبر، ولكان اهتمام القارئ متجهًا نحو مادة خلق الإنسان دون الاهتمام بالخلق نفسه إذ هو الأصل، والتعبير بالفعل المضارع (يُجْمَع)، وبنائه للمفعول، عمل على استحضار صورة الجمع التي لا تكون إلا بعد الانتشار والافتراق، وبهذا تَمْثُل أمام المتلقين والسامعين رؤية منصبة على الفعل وليس الفاعل، فيكون الاهتمام بأمر الجمع الذي لا يُرى بالعين مقربًا، فيهتز القلب تطلعًا لمعرفته.

ونرى الدقة في استخدام مفردة (خَلْقُه) أي: "أَحدثه بعد أَن لم يكن"[(١)]، مما يؤكد على أن الله لأ جمع مادة خلقه من العدم، فالتعبير "بِالْمَصْدَرِ عَنِ الْجُثَّةِ حُمِلَ عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ"[(٢)]، أي: المخلوق منه، والمصدر هنا يؤكد الفعل، ودلالة المقطع الصوتي لكلمة (خَلْقُه) – المكون من حرف الخاء، وهو من حروف "الاستعلاء والقوة"[(٣)]، وحرف اللام، وهو من حروف "الجهر

(١) الخَلْقُ: ابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إليه، ويكون المصدر، ويكون المَخْلُوقَ. لسان العرب، مادة:(خَلَقَ).

(٢) فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، ابن حجر العسقلاني، ١١/ ٤٧٩، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) المختصر في أصوات اللغة العربية، د/ محمد محمد حسن جبل، ٩١، مكتبة الآداب، ط٤، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

والشدة"[١]، وحرف القاف "الانفجاري الشديد المجهور المستعلي"[٢]– له دور في إبراز قوة وشدة الإنشاء من العدم، كما نلاحظ القلقة في القاف التي توحي بثقل المعنى والموقف، لما تتميز به من ضغط كبير في مخرجها، فتوحي بشدة الموقف، وتضاهي مسألة الخلق من العدم، فما حكاه جرس الخاء والقاف واللام، ولَّد بغلظته نغمة قوية أحدثت إيقاعية تجاوِبُ وتناغِمُ المعنى في دلالةٍ تُعبّرُ عن علو مكانة الله لأ، وقدرته في ابتداع مخلوق من غير سابق له.

لقد أشار الرسول ع إلى اجتماع العناصر المتفرقة المكوِّنة لأول مرحلة من مراحل خلق الإنسان، ومكوثها في بطن الأم مدة أربعين يومًا في قوله: (فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)، أي: في الموضع الذي يستقر فيه الجنين، وهو الرحم، ووعاؤه البطن، وفي هذا إشارة تحمل دلالة المودة والألفة لما لها من بعد حميمي، وفي هذا قال تعالى:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[٣] ، أي: "في رحمٍ استقرّ فيها فتمكن"[٤]، فقد هيَّأ الله له رحم الأم ليستقر فيه الجنين إلى وقت خروجه.

إنَّ وصف الرسول ﷺ للمرحلة الأولى من تكوين الإنسان أذهل العلماء؛ لأنَّ "الإنسانية لم تعرف بواسطة علومها التجريبية أن الجنين يمر بأطوار مختلفة بحيث يتكون من اختلاط نطفة الذكر ونطفة الأنثى إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد ذلك إلا في القرن العشرين، عندما اكتشف

(١) المرجع السابق، ١٠٧.

(٢) المرجع السابق،٩٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية رقم: (١٣).

(٤) تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ٢٤/ ١٣٢، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

توماس مورغان[١] عام ١٩١٢م أنَّ خلق الإنسان كله مقدر في نطفة الرجل (الحيوان المنوي) ونطفة المرأة (البويضة)"[٢]، وهي البداية الحقيقية لوجود الكائن الإنساني، "فالمنوي يوجد فيه ٢٣ حاملًا وراثيًا، كما يوجد في البيضة ٢٣ حاملًا وراثيًا أيضًا، ويندمج المنوي في البويضة لتكوين خلية جديدة تحوي عددًا من الصبغات (الكروموسومات) ٤٦، وبوجود الخلية التي تحمل هذا العدد من الصبغيات يتحقق الوجود الإنساني، فقبل دخول الحيوان المنوي إلى البويضة لا توجد خلية بشرية كاملة، وباتّحادهما يتقرر خلق الإنسان الجديد بوجود خلية إنسانية كاملة"[٣].

وبهذا يظهر الإعجاز العلمي في حديث رسول الله ع؛ حيث وصف بداية خلق الإنسان من النطفة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، قبل أن يكتشفها العلماء في العصر الحديث، فبداية تكوين الجنين باتحاد (الحيوان المنوي) وما يحويه من نصف صفات الجنين مع (البويضة) وما تحويه من النصف الآخر للصفات، وإنشاء خلية أولى تعتبر هي البداية لوجود الجنين، فقد وصف الرسولع هذه المرحلة بدقة بالغة في الجمع بعد التفرق، فكان السبق للحديث النبوي في الإشارة إلى وصف دقيق لبداية خلق الجنين، كما يظهر الإعجاز في وصف المرحلة الثانية لخلق الإنسان، فبعد استقرار النطفة أربعين

(١) عالم بيولوجي أميركي، مُنح جائزة نوبل في الفيسيولوجيا والطب، لعام ١٩٣٣م، لبحوثه في علم الوراثة. معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، إعداد: د/ رمزي البعلبكي،٤٣٩، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

(٢) خَلقُ الإنسان بين الطب والقرآن، د/ محمد علي البار، ١٨٨، ١٤٩، بتصرف، الدار السعودية، ط٤، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

(٣) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد، ٢١، ٢٢، ٨٤، من أبحاث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

يومًا في رحم المرأة تتحول إلى علقة، في قوله: (ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً[١] مِثْلَ ذَلِك)، أي: بعد أن كانت نطفة "تَنْقَلِبُ إِلَى الصِّفَةِ الَّتِي تَلِيهَا، فَيُخَالِطُ الدَّمُ النُّطْفَةَ فِي الْأَرْبَعِينَ الْأُولَى بَعْدَ انْعِقَادِهَا وَامْتِدَادِهَا وَتَجْرِي فِي أَجْزَائِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى تَتَكَامَلَ عَلَقَةً فِي أَثْنَاءِ الْأَرْبَعِينَ"[٢]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة، قال تعالى:﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ...﴾[٣]، أي:"صيرنا النطفة التي جعلناها في قرار مكين علقة، وهي القطعة من الدم"[٤]، فحولنا النطفة من صفاتها إلى صفة العلقة، فبعد اجتماع ماء الرجل وماء المرأة واتحادهما تنغرز البويضة في جدار الرحم وتتعلق به، وهي أول خلية يتكون منها الجنين وتأخذ" شكل الدّودة، لتنال غذاءها من دماء الأم مثلما تفعل الدّويبة في أجسام الحيوانات، ويحاط الجنين بمائع مخاطي مثلما تحاط الدودة بالماء، وبطريقة ما يبدأ الدّم بالدوران ويأخذ الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ"[٥]،"فقد ثبت في آخر ما انتهى إليه تكوين الجنين أنَّ الجرثومة التي يكون منها اللقاح في ماء الرجل تعلو رأسها نازعة كالسنان، فتهاجم البويضة في الرحم وتبعَجها بسلاحها فتخرقها وتعلق بها، فإذا هما قد امتزجا"[٦].

---

(١) عَلِقَ بالشيءِ نَشِب فيه، والعَلَقُ الدم الجامد الغليظ قبل أَن ييبس، وقيل: هو ما اشتدت حمرته، والقطعة منه عَلَقة، والعَلَقَةُ دودة في الماء تمصُّ الدم،وعَلِقَت المرأَة أَي حَبِلَتْ. لسان العرب، مادة: (علق).

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ١١/ ٤٨١.

(٣) سورة المؤمنون، من آية رقم : (١٤).

(٤) تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ١٩/ ١٦، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

(٥) ينظر: من اللمسات البيانية والإشارات العلمية في القرآن الكريم، عوني الباز، ٣٤٣، دار البداية ، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.

(٦) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ١٣٦ الهامش، دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م..

وفي هذا أشار العلم الحديث بأنَّ"البويضة الملقحة تنقسم عدة انقسامات متتالية حتى تكون مثل الكرة أو مثل ثمرة التوت، وتسمى عندئذ التوتة Morulla، ثم يمتلئ جوف هذه الكرة بسائل، وتدعى عندئذ الكرة الجرثومية، التي تنغرز في جدار الرحم، ثم تقوم بتأمين الغذاء من الرحم، عندما تتصل مباشرة بالدم الغليظ في الجيوب الدموية الرحمية"(١).

فبعد تكوُّن الخلية الإنسانية الأولى التي تحتوي على ٤٦ كروموسومًا في مرحلة (النطفة) تتحول إلى كرة جرثومية تنشب وتتعلق بجدار الرحم الذي يحتوي على جيوب دموية تكون مصدر غذائها.

ونلاحظ قمة البلاغة، ومنتهى الفصاحة في استخدام الرسولع للفظ (عَلَقَة)، الذي يدل على النشوب والانغراز والالتصاق، فما أثبته العلم الحديث بأنَّ الكرة الجرثومية تنغرز وتتعلق في جدار الرحم وتتصل بالجيوب الدموية التي تستمد منها الغذاء، ويأخذ الجنين " شكل الدودوة، ويبدأ في التغذي على دماء الأم، وهذا ما تفعله الدودة العالقة، في التغذي على دماء الكائنات الأخرى، ويكون الشكل الخارجي للجنين متشابهًا مع الدم المتخثر الجامد الغليظ"(٢)، فقد ناسب اللفظ المعنى في شكله ومضمونه، فأعطى معنى النشوب في الشيء بتعلقه في جدار الرحم، من مخرج حرف العين الذي يخرج من "وسط الحلق"(٣)، وهو صوت"احتكاكي مجهور"(٤)، يمتاز بقوته، وهذا يتناسب مع قوة تشبث الخلية بجدار الرحم، ويمتاز بأنه صوت"تصاحبه نغمة موسيقية؛ إذ يتذبذب الوتران الصوتيان عند تكوينه"(٥) مما يجعل له تأثيرًا

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د/ محمد علي البار، ٢٠٤، ٢٠٥، بتصرف.

(٢) طور العلقة، أ.د/ حنفي محمود مدبولي ، ٣، د.ط.ت.

(٣) المختصر في أصوات اللغة العربية، محمد محمد حسن جبل، ٨٤.

(٤) علم الأصوات، د/ كمال بشر، ٣٠٤، دار غريب، ٢٠٠٠م.

(٥) علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي، د/ محمود السعران، ١٧٨، دار النهضة العربية، بيروت.

خاصًا في الأذن، وهذا يناسب موضوع (التعلق) وما يتصل به بأسهل الطرق التي تقربه من السامع، ومخرج حرف اللام "من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، ومما فُوَيْق الضاحك، والناب، والرباعية، والثنية"[١]، فهو مخرج يشتمل على مساحة تمتد تشمل أغلب أعضاء جهاز النطق، وهذا يتناسب مع انقسام البويضة الملقحة عدة انقسامات في مساحة ممتدة، حتى تكون مثل الكرة، فيستولى هذا الحرف على أغلب أعضاء جهاز النطق ويسيطر عليها ويكون كالنشابة التي أوحت بتعلق هذه الكرة بجدار الرحم، كما في سيطرته على عقبة وسط الفم ورفع الحنك لأعلى من استعلاء وسيطرة الكرة الجرثومية على جدار الرحم، وهذا يتناسب مع اتسام حرف (اللام) بصفتي "الالتصاق والتعلق"[٢]، فتتعلق الكرة الجرثومية وتلتصق بجدار الرحم وتبدأ مرحلة الاستقرار، ونلاحظ هذا الاستعلاء والتعلق أيضًا في صوت حرف القاف الذي "يعبر عن تَجَمُّع ذي حدة في باطن الشيء أو عمقه، وهذا المعنى يلتقي مع الشعور بتكوُّن صوته بالتقاء أقصى اللسان بما فوقه من الحنك الأعلى، التقاء شديدًا محكمًا مشعرًا بكتلة معقدة شديدة في جوف جهاز النطق[٣]، فهو صوت يمتاز بقوته وشدة وقعه على السمع، وهذا يتناسب مع شدة تعلق الخلية بجدار الرحم مقترنة بالقوة .

وتعبير النبي ﷺ بـ (عَلَقَة) دل على استعلاء الكرة الجرثومية وشدة تشبثها بجدار الرحم، وتعلقها به، فالتعلق بدأ بتعلق الجنين بالمشيمة، وهذا

---

(١) علم الأصوات عند سيبويه، المستشرق الألماني أرتور شاده، محاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة: أ.د/ صبيح حمود التميمي،٤٢، آداب الرافدين، العدد (٥٨)، ١٤٣٢هـ- ٢٠١٠م.

(٢) خصائص الحروف ومعانيها ، حسن عباس، ٢٦٢، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

(٣) المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم،محمد حسن حسن جبل، ٣٥، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٠م.

التعبير القوي ساهم فيه جرس أصوات (العين – اللام– القاف)، في التعبير عن المعنى المتمثل في عظمة وصف الطور الثاني لتكوين الجنين بالعلقة في صورة فتحت للمتلقي والسامع منافذًا لفهم المراد من خلال الاتساق الدلالي لامتزاج الأصوات، وأدائها المعنى بدقة لا تؤديه أية لفظة أخرى، فدلالة الجهر والاستعلاء، والجرس القوي لصوت (العين– القاف) ساهما في تشكيل المعنى وتوضيحه، كما ناسب اجتماع (اللام – القاف) الدفع بقوة بواسطة اللام، كأنَّها حبل تدلى، وقد اعتلاه ثقلٌ لازق، فما أن ارتطم بقوة بجدار الرحم، حتى تمسك به ونشب فيه.

ونرى الإعجاز النبوي ليس في وصفه تحول النطفة إلى علقة، أي تحول الجنين من طور إلى طور فقط، بل كان أيضًا في التعبير بمفردة (علقة)، فقد دلت على المعنى ووصفته بأصوات حروفها ومخارجها التي اتسقت مع معناها المعجمي، فكان الإعجاز لوصفٍ لم يُرَ بالعين المجردة؛ بل أبهر العلماء الذين توصلوا لدقائقه بعد الاكتشافات الطبية، وفي هذا دليل على سبق الرسول ع لهذا الوصف في صورة شكلت للمتلقي والسامع وكأنها ماثلة أمامه يراها بعينه قبل أن يتخيلها، فكانت أوقع في التأثير والإقناع.

ويستمر الرسول ع في بيانٍ وصفي لمراحل خلق الإنسان، فبعد أن تتحول النطفة إلى علقة تتحول إلى مضغة في قوله: (ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً[1] مِثْلَ ذَلِك)، فالعلقة" يُخَالِطُهَا اللَّحْمُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَشْتَدَّ فَتَصِيرَ مُضْغَةً، وَلَا تُسَمَّى عَلَقَةً قَبْلَ ذَلِكَ مَا دَامَتْ نُطْفَةً، وَكَذَا مَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ زَمَانِ الْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ، فَإِنَّ الْعَلَقَةَ وَإِنْ كَانَتْ قِطْعَةَ دَمٍ لَكِنَّهَا فِي هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ تَنْتَقِلُ عَنْ صُورَةِ الْمَنِيِّ، وَيَظْهَرُ التَّخْطِيطُ فِيهَا ظُهُورًا خَفِيًّا عَلَى التَّدْرِيجِ، ثُمَّ يَتَصَلَّبُ فِي الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا

(١) مَضَغَ يَمْضَغُ: لاكَ، والمُضْغةُ القِطْعةُ من اللَّحم لمكان المضغ، وهي قدْرُ ما يُلْقي الإنسانُ في فيه، فإذا صارت العَلَقة التي خُلِقَ منها الإنسان لَحْمة فهي مُضغة. لسان العرب، مادة: (مضغ).

بِتَزَايُدِ ذَلِكَ التَّخْلِيقِ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَصِيرَ مُضْغَةً مُخَلَّقَةً وَيَظْهَرُ لِلْحِسِّ ظُهُورًا لَا خَفَاءَ بِهِ"(١)، وقد أشار القرآن لهذه المرحلة، قال تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ...﴾(٢)، أي: "فَجَعَلْنَا ذَلِكَ الدَّمَ مُضْغَةً، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ"(٣).

وهذا ما أكده العلم الحديث، فبعد انتهاء مرحلة تعلق وانغراز الكرة الجرثومية بجدار الرحم وتلقيها الغذاء تنتهي عند"ظهور كتل بدنية تعتبر بداية المضغة، وهي أبرز ما في الجنين في هذه الفترة، ويمكن التعرف عليها من النظر إلى سطح الجنين الخارجي"(٤).

وبعد تعلُّق الجنين بجدار الرحم يتحول إلى صورة لها معالم واضحة، ويظهر له شكل ظاهر يسمى بالكتلة البنية، وبهذا يكن الطور الثالث من أطوار تكوين الجنين كما ذكره ابن مسعود ا في حديثه هذا نقلًا عن الرسول ع الذي به يكتمل الجنين ويتشكل له مظهر خارجي.

ونلاحظ الدقة في تعبير الرسول ﷺ بـــ(مُضْغَة)، إذ الجنين في هذه المرحلة"يبدو وكأنَّ أسنانًا انغرزت فيه ولاكته ثم قذفته"(٥)؛ لأنَّ" ظهور الفلقات تعطي مظهرًا يشبه طبع الأسنان في المادة الممضوغة، وتبدو وكأنها تتغير باستمرار مثلما تتغير آثار طبع الأسنان في شكل مادة تمضغ حين لوكها"(٦)، والميم "تعبر عن تضام...، وهذا المعنى يلتقي مع الشعور بتكون الميم بالتقاء الشفتين في نطقة أقرب إلى ظاهرها مع خروج زمير الجهر من الأنف"(٧)،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٤٨١/١١.

(٢) سورة المؤمنون، من آية رقم: (١٢).

(٣) تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، ١٧/ ٢١.

(٤) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د/ محمد علي البار، ٢٠١، ٢٤٧، ٢٤٨.

(٥) المرجع السابق، ٢٥٥.

(٦) وصف التخلق البشري (مرحلة النطفة)، البروفيسور/ كيث مور، ١٧، الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ١٩٩٥م.

(٧) المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، ٣٧.

وتتفق دلالة هذا الصوت مع دلالة السياق الدال على التضام والتجمع الكائن في شكل الجنين الذي ينحني ويصبح مقوسًا شبه مستدير، الضاد "تعبِّر عن غِلظ وثِقَل له حِدّة ما، يخالط فيضغط بِغِلَظِه وثِقَله ما خالطه، وهذا المعنى يلتقي مع الشعور تكون صوته؛ حيث يمتد طرف اللسان إلى لثة الثنايا العليا، مع استعلاء أقصاه، وتقعر وسطه، واستعراض جوانبه، فيملأ الفم؛ فلا تجد النفسُ سبيلًا للخروج إلا جانبي اللسان أو أحدهما"(١)، فصوت الضاد يسيطر على منطقة الحنك، وهذا يتناسب مع سيطرة الجنين على جوف الرحم، وصوت الغين"من أقصى الحنك احتكاكي مجهور"(٢)، فارتفاع أقصى اللسان عند نطقه؛ بحيث يحتك بأقصى الحنك، يجسد حالة القوة التي تقتحم الكتلة البدنية بعد أن كانت كرة جرثومية معلقة في جدار الرحم، وعمق مخرج (الغين) يتناسب مع تغير العلقة بعد أن كانت معلقة في جدار الرحم إلى وجودها في شكل يحتوي تجويف الرحم، كما يوحي الاحتكاك في(الغين) بوجود علاقة عاطفية يملؤها الدفء والأمان؛حيث بدأت الأم تشعر بالجنين، ونلاحظ تناسق جرس الأصوات وحس المعنى الذي يُشعِر بانضغاط النسيج اللحمي بعضه في بعض فيشتد كتلك المضغة التي تكن لينة ثم تجف.

وبهذا يتضح أنَّ لجرس الحرف تأثيرًا صوتيًا فعالًا، يساعد في إظهار المعنى الدلالي، وإضفاء التجسيد عليه وكأنَّه صورة ماثلة للمتلقي والسامع، فقد أكسبت الكلمة بجرسها وقدرتها على حكاية هذه الدلالة، وذلك الإيحاء من مخارج حروفها وصفاتها، ولا شك أنَّ لكل حرف دخلًا في إبراز هذه الدلالة.

ويبدو الإعجاز في التعبير بمفردة (مُضْغة) الذي تتوافق في دلالة جرس أصواتها مع دلالة معناها المعجمي، فبعد أن تتعلق الكرة الجرثومية بجدار الرحم وتتلقى الغذاء تبدأ في التحول إلى فلقات أعطت شكلًا يشبه طبع

(١) المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن حسن جبل، ٣١.
(٢) علم الأصوات، د كمال بشير ، ٣٠٣.

الأسنان في المادة الممضوغة، وكأنها تتغير مثلما تتغير آثار طبع الإنسان في شكل مادة ممضوغة، وهذا يناسب التغير السريع في شكل الجنين، وتبدو هذه المادة التي تلوكها الأسنان في تغير نتيجة لاستدارتها في الفم بالمضغ، كما يبدو التغير على شكل الجنين وانحنائه وتقوسه في شكل شبه مستدير، ويظهر حجم الجنين ضغير جدا يتناسب مع الشيء الصغير الذي يمضغ.

لقد خلق الله لأ الجنين بداية من اجتماع أشياء لا يمكن للعقل البشري تخيلها وإدراكها، وأحدث تغييرات على هذه الأشياء حتى تحولت من صورة إلى صورة في تسلسل متناغم، وكأن القارئ والسامع يشاهد هذا التحور وهذا التغير في مشهد يعجز العقل عن إدراكه ويتعجب من تصوره، لذا كان للأساليب البلاغية التي تنوعت وتواشجت وتجاورت مع بعضها البعض في صورة أذهلت العلماء، وأظهرت قدرة الله تعالى لأ، وأوضحت صدق نبيه ع، وكان لها دور في بيان الإعجاز النبوي الذي سبق اكتشاف العلماء بعد ظهور الأجهزة الطبية الحديثة التي وصفت ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية من مراحل خلق الجنين.

وتعبير الرسول ﷺ بالفعل المضارع (يَكُون) عمل على استحضار صورة الفعل الذي يتجدد ويتغير من صورة إلى أخرى تبعًا للمرحلة التي يمر بها، فالنطفة تتطرأ عليها تغيرات حتى تصبح علقة ثم تتغير لتصبح مضغة، وبهذا تُستحضر الصورة التي أخبرنا بها الرسول ع في مراحل خلق الجنين من العدم.

ونرى الدقة في الائتلاف والتناسب والتوافق بين قوله: (عَلَقَة – مُضْغَة)، فمراعاة النظير جعلت الأسلوب متناسقًا والألفاظ متآلفة، والجمع بينهما للتناسب، فطَوْر العلقة ناسبه طور المضغة، وهذا التناسب يجذب انتباه السامع ويثير ذهنه ويقوي المعنى ويؤكده.

ويظهر الإعجاز النبوي في التعبير بـ(ثُم) وتكررها، فهي تدل على"الترتيب مع التراخي"[(١)]، أي: "انقضاء مدة زمنية طويلة بين وقوع المعنى على المعطوف عليه ووقوعه على المعطوف، وتقدير المدة الزمنية الطويلة متروك للعُرف الشائع"[(٢)]، فهي تدل على التحول من الطور الأول (النطفة) إلى الثاني(العَلَقَة) إلى الثالث (المُضْغَة) في مدة زمنية ذكرها الرسول ع في قوله: (أَرْبَعِينَ يَوْمًا)، ثم أشار إليها بقوله: (مِثْلَ ذَلِك) أي: مثل هذه المدة، فنزل الزمن (المعنوي) منزلة (الحسي)؛ لاستحضار الصورة في الذهن، كما أشار إليه بـ (ذلك) دون (هذا) لاعتبار بعده اللفظي، فتتابع الألفاظ في دلالة سياقية جعلت الحجة قوية، فلا يمكن أن تكون المضغة قبل العلقة، ولا العلقة قبل تخلق النطفة، فبعد انتهاء طور تخلق النطفة في المدة المحددة كان طور العلقة الذي انتهى بعد مدة إلى طور المضغة، فهناك وقت ومهلة بين كل طور والذي يليه، فالمعطوف عليه كان بعد المعطوف مرتبًا ومحددًا لا على الفور، فالتحول يتحقق بين كل طور في فترة زمنية محددة، ولا يقتصر دور (ثم) على الترتيب والتراخي في الزمن فقط؛ بل جُعِلت سببًا مقنعًا للمتلقي؛ حيث توسطت بين أكثر من لفظ دلالي جمعت بينهم في صورة تصاعدية أساسها الترتيب مع التراخي الزمني مما شكلت تأثيرًا في المتلقي، فهذه المعجزات تأتي في ترتيب زمني يفضي إلى التأكيد على بيان أطوار خلق الإنسان منذ خلقه من اجتماع نطفة الرجل ونطفة المرأة إلى أن أصبح جنينًا له شكل وهيئة، فساعدت أداة الربط (ثمّ) على إقامة حجة قوية تؤيد ما قبلها، فالحجة قبل الرابط كانت بدء الخلق من العدم ثم أيدها الرابط بتأكيد استمرارية

(١) الجنى الداني في حروف المعاني، الحسَن بن قاسم المرادي، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، ٤٢٦، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

(٢) النحو الوافي، عباس حسن، ٥٧٧/٣، دار المعارف، ط١٥، د.ت.

هذا الخلق إلى أن أصبح في صورة علقة استمر خلقها إلى أن أصبحت مضغة، ونلاحظ التناسب بين مجيء (ثمّ) على ثلاثة أحرف، وأطوار خلق الإنسان، فطول نطقها مع التراخي ناسب البعد المعنوي والزمني، فخلق النطفة من ماء الرجل وماء المرأة، وتحولها إلى علقة ثم إلى مضغة، أبعد ما يكون على العقل البشري تصديقه، فاحتاج زمنًا طويلًا في التفكير، وفي تكرارها وسيلة للوصول إلى ذهن المتلقي بما تحمله في طياتها من دلالات تكشف عن قصد المتكلم من ذكرها وزجها في سياق كلامه، فقد ساهمت في اتساق النص وتأكيد المقصود، فهي "أداة ربط رقيقة، تسوس الألفاظ برفق، وتشد عراها في أناة، وتجمع أبعادها ومتنافرها في يسر ولين"(١).

وبعد تكوين الجنين في صورة كتلة بدنية لها خصوصية، يأتي دور الملك الذي يبعثه الله لأ، ويأمره بـ"كتابة أقداره، وهو ما زال جنينًا في بطن أمّه بعد استكمال تشكيله وتصويره، وتكامل أعضائه وحواسه"(٢)، وذلك في قوله: (ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ،) أي: بعد أن يكتمل بنيان الجنين وتتشكل أعضاؤه يبعث الله لأ الملك الموكل بكتابة أقداره، ويأمره بكتابة عمله خيرًا كان أو شرًا، ورزقه قليلًا كان أو كثيرًا، وأجله طويلًا كان أو قصيرًا، وشقاوته وسعادته.

ونلاحظ الدقة في استحضار الرسول ع صورة فعلي (البعث – الأمر) في أذهان المتلقين بصيغة المضارع (يَبْعَث – يُؤْمَر)، وهي أمور غيبية أراد الرسول ع أن يستحضرها، وكأنها واقعية لتحقق المغزى والغرض

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم(الفاء وثم)، د/ محمد أمين الخضري، ١٥٣، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، ٤/ ١٥٤، مكتبة دار البيان، دمشق، سورية، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

من المعنى، والتعبير بالفعل (يَبْعَث) دون (يرسل) [1]؛ لأنَّ البعث فيه معنى الإرسال، ومعنى خاصًّا بالمبعوث دون المبعوث إليه، أما الإرسال فإنه لا يكون إلا برسالة محملة للطرف الآخر، فالله سبحانه وتعالى يبعث الملك ليس لمجرد إرسال فقط؛ بل معه ما يؤمر بفعله إلى الطرف الآخر، فهو أشد من الإرسال، فالبعث تركيز على الرسالة المبعوثة أكثر من الطرفين، أما الإرسال فالتركيز فيه على المُرسل والمرسل إليه أكثر من الرسالة، والبعث هنا لتسليط الضوء على الأربع كلمات التي كُلف بها بالدرجة الأولى، ثم على الملك الذي جاء بصيغة النكرة للإفراد، أي: ملكًا واحدًا من كثير من الملائكة المكلفين بهذا الأمر، ومن الممكن اعتبار التنكير للتعظيم، وبناء الفعل (يُؤْمَر) للمفعول؛ لأنَّ حقيقة الأمر لا نعلمها، فيضم حدث الفعل من الأمر مع مصدره، وينصب الاهتمام على الأوامر التي أُمر الملك بها فيهتز القلب تطلعًا لمعرفتها، فغاب لفظ الفاعل لعدم تعلق الغرض به، ولتسليط الضوء على الأوامر التي أُمر الملك بكتابتها؛ حيث ذكرها الرسول ع مبهمة في قوله: (فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَات)، وذلك لتمكين المعنى في نفس المتلقي لوقوعه بعد استشراق النفس إليه وتشوقها لمعرفته، فإذا حصل التفصيل بعد ذلك كان التمكين أشد لحصول النفس عليها بعد اشتياق، فالله لأ يأمر الملك بأن يكتب للجنين بعد تشكله وتصوره في قوله: (اكْتُبْ) بصيغة الأمر المطلق الدالة على الوجوب، إذ لا مجال للملك المُوَكل سوى تنفيذ ما أُمر به من كتابة (عَمَلِه، وَرِزْقه، وَأَجَله، وَشَقِي أَوْ سَعِيد)، وفي هذا إطناب أزال إبهام ما قبله، وأكد المعنى في ذهن المتلقي، وقد منح الجناس بين (عَمَله– أَجَله) المعنى جرسًا موسيقيًا وإيقاعًا زاده قوة وتأثيرًا، والحذف في (وَشَقِي أَوْ سَعِيد) جاء للتعجيل بذكر الشقاء دلالة على الاهتمام به، فكأنَّ هناك شيئا أهم من المبتدأ الذي

(١) إنَّ قولك: أرسلت زيدًا إلى عمرو يقتضي أنك حملته رسالة إليه أو خبرًا وما أشبه ذلك. معجم الفروق اللغوية، أبي هلال العسكري، ١٦، د.ط.ت.

حذف، وتقديره (هو)، ففي الحذف أثر نفسي مصدره الصورة التي تجذب المتلقي لمعرفة حالته في كونه شقيًا أو سعيدًا، فلو ذكر المبتدأ (هو) لما كان هذا الاختصاص بالخبر للدلالة على شقاء الإنسان وسعادته، وهذا ما أكده الطباق بين اللفظتين (شَقِي – سَعِيد).

ونرى دقة الإعجاز النبوي في استخدام أحرف العطف المختلفة ومناسبتها لدلالة السياق، فكانت (ثم) كما ذكرنا سابقًا بدلالتها على الترتيب والتراخي في قوله: (ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا) تُبين أنَّ الله لأ بعث الملك بعد الانتهاء من خلق الجنين وتكوينه، وأمره في قوله: (فَيُؤْمَر) باستخدام أداة الربط (الفاء)[1]، وذلك لأنَّ الأمر عَقِبَ البعث دون فارق زمني، فدلت الفاء على السرعة التي حدث فيها الأمر مباشرة عقب البعث، إذ أنَّها طوت الزمن بين البعث والأمر، كما نرى دلالة أداة الربط (الواو) [2] في قوله: (عَمَلَه، وَرِزْقه، وَأَجَله، وَشَقِي)، فهي أداة ربط بين الألفاظ من خلالها تم إحكام السياق كنسيج متسق منتظم، فالأمر بكتابة العمل والرزق والأجل والشقاء أوالسعادة جميعًا لا واحدًا دون غيره، ففي الجمع بينها دلالة على كتابة أحوال الإنسان الأربعة واحدة تلو الأخرى في رصف للمعنى يكشف عن فاعلية العطف بالواو، وليس الربط بين العبارت، وإنما الكشف عن التفاعل السياقي بين أجزاء الكلام وإبراز جماليته في عطف متلائم الأطراف، متناغم الأجزاء بين (عَمَلَه، وَرِزْقه، وَأَجَله) مراعاة للنظير الذي أسهم في إيجاد تناسب وجمع بين أطراف الكلام المتعاطف، ونلاحظ الإعجاز في تناسب أصوات هذه الأحرف العاطفة مع معانيها، فـ(ثمَّ) كما ذكرنا سابقًا للترتيب والتراخي، وهذا يتناسب مع ما في

(١) أداة تفيد "التعقيب والترتيب" الجني الداني في حروف المعاني، الحسَن بن قاسم المرادي، ٦١.

(٢) أداة تفيد "الجمع بلا قيد، فلا يشترط الترتيب في متعاطفيها" حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، ١٦، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.

(الثاء) من فسحة في الزمان والمكان لخاصية تفصل بين المعطوف عليه والمعطوف، و(الفاء) التي تخرج "بالتقاء أطراف الثنايا العليا بباطن الشفة السفلى، إذ لا تكاد تكف الجهاز الصوتي إلا جذب الشفة السفلى"[١]، فبين المعطوف والمعطوف عليه حفرة صوتية تحول دون تدافع المعطوف بها، فيأتيان بترتيب زمني متقارب يتناسب مع قصر الزمن الذي يستغرق لنطق صوتها، و(الواو) صوت يخرج "اندفاع الهواء من الرئتين، فإذا ما وصل إلى اللسان ارتفع أقصاه واستدارت الشفتان مع ذلك فمر الهواء"[٢]، وهذا يتناسب مع تدافع النفس في الجوف عند النطق بها لتدافع متعاطفوها على الطبيعة.

ويستمر الرسول ع في بيان وصفي دقيق لكيفية خلق الجنين في بطن أمه، فبعد تشكل صورة الجنين، وإرسال الملك المكلف بكتابة أقداره، يُنفخ فيه الروح، في قوله: (ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوح)[٣] أي: "نَفْخُ الملك في الصورة سببٌ يخلقُ اللهُ عنده بها الروحَ والحياة"[٤]، ونفخ الروح يكون "بَعْدَ مئة وعشرين يومًا، وذلك تمام أربعة أشهر، ودخوله في الخامس، وهذا موجود بالمشاهدة"[٥]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾[٦]، أي بعد أن:"سَوَّى خَلْقَهُ"[٧]نَفَخَ فيه، وهو"تَمْثِيلٌ لِسَرَيَانِ اللَّطِيفَةِ الرُّوحَانِيَّةِ فِي الْكَثِيفَةِ الْجَسَدِيَّةِ مَعَ سُرْعَةِ الْإِيدَاعِ"[٨]، وهذا ما أثبته العلم الحديث بأنَّ الجنين "في

(١) المختصر في أصوات اللغة العربية، د/ محمد حسن حسن جبل ، ١٣٢.
(٢) المرجع السابق ، ١٣٨.
(٣) الرُّوحُ: النَّفْسُ.لسان العرب، مادة: (روح).
(٤) المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم، أبي العباس القرطبي، ٦/ ٦٥١.
(٥) المرجع السابق، ٦/ ٦٥١.
(٦) سورة السجدة، من الآية رقم: (٩).
(٧) تفسير القرطبي،شمس الدين القرطبي ، ٩١/١٤.
(٨) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ٢١٧/٢١، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

الأسبوع السادس عشر يكتسب سحنة إنسانية واضحة، وتصبح حركات الجنين من الشدة؛ بحيث يمكن للأم الشعور بها، ويمكن سماع دقات قلب الجنين، بوضع السماعة على بطن الأم"(١).

إنَّ تعبير الرسول ﷺ بالفعل المضارع (يُـنْفَخ) المبني للمفعول، يستحضر صورة النفخ في أذهان المتلقين وتعظيمها، وبيان أهميتها في كون النفخ سببًا يخلق الله به الروح والحياة في الجنين، فقضية نفخ الروح في الجنين مختلف فيها مابين الوقت والكيفية(٢).

ويبدو إعجاز الرسول ﷺ في التعبير بمفردات وألفاظ وأفعال وجمل وصياغتها صياغة محكمة من خلال تجاور وتداخل الصور وتتابعها في إرسال الشيء بعد الشيء وتواليه بنقل الصورة إلى العقل في إشارة دلالية تترك أثرًا في المتلقي، وتعمل على استحضار الصورة ماثلة في ذهنه، فاقتباس الركائز ساعد المعنى في الإبداع وبناء الأفكار بعضها على بعض، فكانت بداية تخلق الجنين من اجتماع ماء الرجل وماء المرأة ركيزة بني عليها الجملة التي بعدها، ثم أخذت الركيزة من العلقة التي بني عليها خلق المضغة، فهذا التعانق المحكم للمعاني في معرض دقيق من الألفاظ؛ بحيث نشعر ببناء محكم لو حذفت لبنة من لبناته لانهار بأكمله، فكان أبلغ في الإقناع، كما كان للتناسق الصوتي أثر ظاهر في انتباه عقول المتلقين لتنبيههم لهذه الأمور العظيمة.

---

(١) علم الجنين الطبي (لطلبة الطب)، د/ ريتشارد سنل، ترجمة:د/ طليع بشور، سلسلة الكتب الدراسية الطبية، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: نفخ الروح في الجنين بين إعجاز القرآن والسنة، وبين الدراسات الطبية الحديثة، د/ محمد علي حسن الشوكي، بحث منشور جامعة الأزهر – كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، وكتاب الرُّوح، الإمام أبي عبد الله ابن قيم الجورية، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، وخرج أحاديثه: كمال بن محمد قالمي، دار عالم الفؤاد، د.ط.ت.

وبعد انتهاء الرسول ﷺ من ذكر مراحل تكوين الجنين في بطن أمه أخبرنا عن عمل الإنسان، وكيف تكون نهايته، في صورة لا تستدعي التأكيد في قوله: (فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ) [1]، ولكنها جاءت مؤكدة بـ (إنَّ، واللام) مراعاة لحال المخاطب الخفية، لذا كان التأكيد على خلاف اقتضاء الظاهر؛ لأنَّ المخاطب في موضع الشاك أو المنكر لمشاهدته الرجل يعمل الطيبات أو يعمل الخبائث، لذا كان حتمًا دخول الأول الجنة، والثاني النار، ولكنَّ الرسول ﷺ ذكر خلاف ما يبدو لهم، ولما كان هذا الأمر مستبعدًا اقتضى التأكيد، فالمخاطب على ثقة من دخول الرجل الذي يعمل الصالحات الجنة، ولكن الرسول ع عكس اعتقاد المخاطب، وأخبره بدخوله النار، وفي المقابل نجد ثقة المخاطب في دخول الرجل الذي يعمل الخبائث النار، ولكن الرسول ﷺ عكس اعتقاد المخاطب أيضًا، وأخبره بدخوله الجنة، فالصورة المتقابلة بين الموقفين تؤكد على عدم الاغترار بظاهر الأعمال، فلا يخطر على بال أحد أنه من أهل النار وأعماله الصالحة ظاهرة، كذا العكس، كما في التقابل بين الصورتين من تحذير بعدم الحكم على الإنسان من ظاهر أعماله، والعمل على الاجتهاد في العمل الصالح والدعاء بالثبات عليه، فالمقابلة منحت السياق رونقًا وأكسبته قوة وتماسكًا بما حوته من صور متجاورة ومتداخلة تلتحم فيها المفردات معبرة عن صورتين متناقضتين، فقد كان عمل الرجل بالعمل الصالح إلا أن تغير وتبدل حاله، كما تغير وتبدل

(١) أوردها الإمام البخاري في رواية أخرى بزيادة (فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ....، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ....) في كتاب (أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ)، باب (خلق آدم صلوات الله عليه وذُرِّيته)، حديث رقم (٣٣٣٢)، وكتاب (القدر)، باب (١)، حديث رقم (٦٥٩٤)، وكتاب (التوحيد)، حديث رقم(٧٤٥٤).

حال الرجل الذي كان يعمل الخبائث، وهذا التَغير وتبدل الحال حقق التأثير المطلوب في نفس القارئ والسامع الذي يربط بين الحالتين، فنلاحظ الدقة في استخدام الفعل المضارع (يَعْمَل) وتكراره ليدل على تكرار حصول الفعل والاستمرار في الأعمال الصالحة في (لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار) والأعمال الطالحة في (وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ) فيكشف ويؤكد الاستمرارية والمداومة على الفعل، كما نلاحظ تكرار (حَتَّى)[1]، وهي رابط قوي يدل على نهاية العمل الذي يشرع فيه الإنسان، فإذا ما عمل الصالحات توقع نهايته، وإذا ما عمل الخبائث توقع نهايته، ولكن سرعان ما تتحول هذه النهاية إلى العكس في قوله: (فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ)، (فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ)، أي:"يَتَعَارَضُ عَمَلُهُ فِي اقْتِضَاءِ السَّعَادَةِ وَالْمَكْتُوبُ فِي اقْتِضَاءِ الشَّقَاوَةِ فَيَتَحَقَّقُ مُقْتَضَى الْمَكْتُوبِ، فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالسَّبْقِ؛ لِأَنَّ السَّابِقَ يَحْصُلُ مُرَادُهُ دُونَ الْمَسْبُوقِ"[2]، وتكون نهايته (فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّار)، (فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ).

وتبدو الدقة في تداخل الصور التي أضفت على السياق قوة وتأكيدًا واختصاصًا، فاختصر الكلام وأوجز عن طريق الكناية التي تولد االمبالغة في الإثبات دون المثبت في قوله: (حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ) كناية عن قرب الأجل.

وتتواشج الكناية مع أسلوب القصر بالنفي والاستثناء في قوله: (يَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ)، وقوله: (وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ)، والذي يعد من أبلغ طرق القصر وأوضحها في الدلالة،

---

(١) تدل على انتهاء الغاية لشيء قبلها. الجني الداني في حروف المعاني، الحسن بن اسم المرادي،٥٥٥، ٥٥٦.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١١/ ٤٨٧ .

فالقصر هنا يؤكد على قرب المسافة (الأجل) أي: عندما يقترب الإنسان من نهاية حياته بقدر(ذِرَاع)، وهذا على سبيل الـ "تَمْثِيل بِقُرْبِ حَالِهِ مِنَ الْمَوْتِ، فَيُحَالُ مِنْ بَيْنِهِ وَبَيْنَ الْمَكَانِ الْمَقْصُودِ بِمِقْدَارِ ذِرَاعٍ أَوْ بَاعٍ مِنَ الْمَسَافَةِ، وَضَابِطُ ذَلِكَ الْحِسِّيِّ الْغَرْغَرَةُ الَّتِي جُعِلَتْ عَلَامَةً لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْبَةِ"[1]، فالرجل يستمر في العمل، وما أن يكون بينه وبين الوصول للنهاية مقدار ذراع سرعان ما يتغير حاله، ويغلب عليه كتابه، وتتغير نهايته، فدلالة الفاء في قوله: (فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ) وقوله: (فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ) تدل على سرعة تغير الحال، وعدم الإحساس بهذا التغيير، لتعقبه السريع لأعماله، وفي قوله: (الكِتَاب) إيجاز بالحذف، أي: (مضمون الكِتَاب)، وفي تقديم المسند في قوله: (بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّة)، (بَيْنَهُ وَبَيْنَ النار) على المسند إليه (إِلَّا ذِرَاع) دلالة على التشويق؛ لأنَّ فيها دلالة على قرب النهاية، وتشوقه لمعرفة نتيجة أعماله، فعمق التقديم الدلالة، فقد أضفى الطباق بين (الجَنَّة – النار) ترغيبًا وترهيبًا؛ لأنه ورد في موقف تترقب فيه النفس نتيجة ما عملت، فزاذ الطباق المعنى وضوحًا، وجذب الانتباه، وأثار الذهن بالتضاد.

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ١١/ ٤٨٧ .

الخاتمة

وبعد...

فقد انتهت الرحلة التطبيقية لدراسة حديث ابن مسعودا في مراحل خلق الجنين، وقد خرجت الدراسة بعدة نتائج وتوصيات، أهمها:

أ- النتائج:

١. ذكر الرسول ع حقائق عن علم الأجنة، مما جعل العلماء ينبهرون بهذا بعد اكتشاف الأجهزة الحديثة، فكانت دليلًا على صدق النبي ع.

٢. عبر الرسول ع بالأسلوب الخبري الذي ناسب الإعلان والتصريح عن حقائق علمية، وثوابت يقينية، مؤكدًا إياها بأبلغ لغة، وأفصح خطاب، وأدق تعبير، وأرقى أسلوب، حتى يصل المعنى إلى المتلقي.

٣. جاءت ألفاظ الحديث في التعبير عن مراحل تكوين الجنين معبرة تعبيرًا دقيقًا عن المظهر الخارجي والبناء الداخلي، وما يعتريه من تغيير يصاحبه علاقة جديدة.

٤. جاء تطور خلق الإنسان من أدنى شيء، وهو ماء الرجل وماء المرأة، وتحول بعدها من حالة إلى حالة مع قدرة الله لأ على خلق الجنين مرة واحدة، ولكن رحمة بالأم؛ لأنه لو خلقه دفعة واحدة لشق ذلك عليها.

٥. الإعجاز البلاغي ليس قاصرًا على المعاني، وإنما يشمل الأصوات والحروف، منطوقة ومسموعة، وائتلافها في اللفظ، ومجاورة اللفظ لغيره في سياق نظمي، حقق مطابقة الكلام لمقتضى الحال من خلال الأداء الصوتي، فالجرس الصوتي للفظ كان له أثرٌ قويٌّ، في

الكشف عن المعنى وتأكيده وتسلسله وانتظامه، كما خلق إيقاعًا ينسجم مع نظم المعنى مما يعطي أثرًا قويًا في التأثير.

٦. استخدام عدة مؤكدات وكأنَّ الرسول ﷺ بهذه المؤكدات يهيئ العقل، ويجعله مستعدا لتقبل هذه الحقائق التي عرضها في صورة علمية دقيقة. كما كان لاستخدام حروف العطف المختلفة دلالة بيانية إعجازية بينت تطور المراحل.

٧. تنوع الأساليب البلاغية لمحاولة إقناع المتلقي والتمكين منه على نحو يستلهم الهمم في التواصل مع روح السياق.

٨. استطاعت كل لفظة في الحديث أن تبرز المعنى وتوضحه، وكان لوجودها قيمة كبيرة في السياق، وللتعبير بها قيمة أكبر، ودلالة أعمق، فهي دلالة مقصودة لمعنى مقصود.

ب- التوصيات:

دراسة البلاغة النبوية اعتمادًا على السياق، وأثره في المعنى، والربط الفني البلاغي بالفنون الأخرى؛ لإثراء المعنى وإظهاره.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١. أسد الغابة في تعريف الصحابة، أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، تحقيق: علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٢. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د/ عبد السلام حمدان آفاق للطبع والنشر والتوزيع، غزة، فلسطين، ٢٠٠٢م.

٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، ط٩، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

٤. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٥. تفسير البغوي، ابن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرازق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٦. تفسير الرازي، لفخر الدين الرازي، ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٧. تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٨. تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي،تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م

٩. تفسير الكشاف، أبو القاسم الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

١٠. الجني الداني في حروف المعاني، الحسَن بن قاسم المرادي، تحقيق: د/ فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

١١. حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، حسن عباس، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٢. خصائص الحروف ومعانيها ، حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.

١٣. خَلقُ الإنسان بين الطب والقرآن، د/ محمد علي البار، الدار السعودية، ط٤، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
١٤. رجال صحيح مسلم، أبو بكر ابن منْجُويَه، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
١٥. شرح السنة للبغوي، ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش ،كتاب (الإيمان)، باب: الإيمان بالقدر، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
١٦. شرح غريب ألفاظ المدونة، الجبي، تحقيق: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.
١٧. صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
١٨. علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني، مصطفى أحمد، من أبحاث المؤتمر العلمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
١٩. علم الأصوات عند سيبويه، المستشرق الألماني أرتور شاده، محاضرة برؤية استشراقية ومراجعة حديثة : أ.د/ صبيح حمود التميمي،آداب الرافدين، العدد (٥٨)، ١٤٣٢هـ– ٢٠١٠م.
٢٠. علم الأصوات، د/ كمال بشر، دار غريب، ٢٠٠٠م.
٢١. علم الجنين الطبي (لطلبة الطب)، د/ ريتشارد سنل، ترجمة:د/ طليع بشور، سلسلة الكتب الدراسية الطبية، ٢٠٠٢م.
٢٢. علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي، د/ محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت.
٢٣. فتح الباري (شرح صحيح البخاري)، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٢٤. كتاب الرُّوح، الإمام أبي عبد الله ابن قيم الجورية، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، وخرج أحاديثه: كمال بن محمد قالمي، دار عالم الفؤاد، د.ط.ت.

٢٥. كشاف اصطلاحات الفون والعلوم، محمد علي التهانوي، تحقيق: رفيق العجم، علي دحروج، مكتبة لبنان، ١٩٩٦م.
٢٦. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبي البقاء أيوب الحسيني الكوفي، قابله على النسخة الخطية ووضع فهارسه: د/ عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٢٧. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبي البقاء أيوب الحسيني الكوفي، قابله على النسخة الخطية ووضع فهارسه: د/ عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٢٨. لسان العرب، لابن منظور، مادة: (عجز)، دار صادر – بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٢٩. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر،تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ط١، ١٤٠٢هـ – ١٩٨٤م.
٣٠. المختصر في أصوات اللغة العربية، د/ محمد محمد حسن جبل، مكتبة الآداب، ط٤، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
٣١. معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، إعداد: د/ رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
٣٢. المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم،محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠١٠م.
٣٣. معجم التعريفات ، الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، د.ط.ت.
٣٤. معجم الفروق اللغوية، أبي هلال العسكري، د.ط.ت.
٣٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
٣٦. مُعْجم مقاييسُ اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عَبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
٣٧. مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي،، دار القلم، دمشق، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٣٨. المفهِم لما أشكَل من تلخيص كتاب مسلم، الحافظ أبي عباس القرطبي، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
٣٩. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم(الفاء وثم)، د/ محمد أمين الخضري، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
٤٠. من اللمسات البيانية والإشارات العلمية في القرآن الكريم، عوني الباز، دار البداية ، عمان، ط١، ٢٠٠٠م.
٤١. منار القاي شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، سورية، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.
٤٢. الموسوعة الطبية الفقهية، د/ أحمد محمد كنعان، تقديم: د/ محمد هيثم الخياط، دار النفائس، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.
٤٣. موسوعة مصطلحات الحضارة الإسلامية (مصطلحات علوم القرآن)، رئيس التحرير :أ.د/ عبد الحليم عويس، مدير التحرير: أنور الباز، دار الوفاء، ط١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.
٤٤. النحو الوافي، عباس حسن، ٥٧٧/٣، دار المعارف، ط١٥، د.ت.
٤٥. نفخ الروح في الجنين بين إعجاز القرآن والسنة، وبين الدراسات الطبية الحديثة، د/ محمد علي حسن الشوكي، بحث منشور جامعة الأزهر – كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية.
٤٦. الهادي شرح طيبة النشر في القراءات العشر، محمد محمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
٤٧. وصف التخلق البشري (مرحلة النطفة)، البروفيسور/ كيث مور، الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ١٩٩٥م.